اللغة والتعبير عن الانفعال

١ـ اللغة ضرورة للتعبير عن الانفعال:

ظهر فيما سبق أن الانفعال متأصل في النفس البشرية، فهو انعكاس لما يصيب الإنسان، فإن اللغة قرينة هذا الانفعال بدائية مع الإنسان الأول؛ أو لغة حية حديثة معاصرة. ولهذا فاللغة: يمكن أن تؤدي وظيفتين رئيسيتين، فقد تكون أداة للتعبير عن الحقائق والقضايا الموضوعية، وفي هذه الحالة يكون هدفها مجرد توصيل الأفكار ونقلها، ولكنها أيضاً ذات وظيفة عاطفية وديناميكية بصفة أساسية. أي أن وظيفتها حينئذ هي التعبير عن العواطف والانفعالات وإثارة المشاعر والتأثير في السلوك الإنساني، والواقع أن هذين الجانبين موجودان في معظم أساليب الكلام، ولكن بنسب تتفاوت من القضايا المجردة ذات الصبغة المنطقية الخاصة إلى الأصوات التعجبية والصرخات التعبيرية [١].

ويذهب فندريس إلى أنه: لا تكاد توجد جملة – مهما كانت شائعة أو مبتذلة – تخلو من العناصر الانفعالية [٢].

يقول د. رمضان عبد التواب: وعلى ذلك فإن اللغة لا يصح أن تدرس على أنها أداة عقلية فحسب؛ لأن الإنسان كما يتكلم ليصوغ أفكاره، فإنه يتكلم ليؤثر في غيره من الناس، وليعبر عن إحساسه وشعوره وعواطفه، فهو يعبر باللغة عن نفسه، كما يعبر عن أرائه، بل إنه يمكن القول بأن التعبير عن أية فكرة لا يخلو مطلقاً من لون عاطفي، إلا إذا استثنينا التفكير العلمي أو اللغة العلمية، التي يجب أن تكون معبرة عن الفكرة المحضة، والحقيقة المجردة الخالية من الانفعالات النفسية [٣].

فإذا كانت اللغة لا تخلو من الانفعالات النفسية كما أقر هؤلاء العلماء، فإنه يجب دراسة اللغة بكل صورها – باستثناء اللغة العلمية – مكتوبة ومنطوقة، رغم التفاوت بينهما في التعبير عن الانفعال.

---

(١) دور الكلمة في المعني، ستيفن أولمان، تر/ د. كمال بشر، مكتبة الشباب، ١٩٧٥م، ص٩٢.
(٢) اللغة، ١٨٣.
(٣) المدخل إلى علم اللغة، ١٤٠.

لقد درس الانفعال وتأثيره في بناء الجملة علماء النحو في باب التعجب بأساليبه وألفاظه وباب القسم وباب الندبة وغيره من أبواب النحو، فنحن نستخدم – أحياناً – قبل العبارة اللفظية أو نهايتها لفظاً معيناً، قد يكون قسماً أو تعجباً، أو غير ذلك مما نقصد به التأثير الانفعالي في القارئ أو السامع [1] .

وكذلك لاحظ علماء البلاغة ما يفعله الأدباء في إنتاجهم الأدبي من تقديم وتأخير وحقيقة ومجاز وغيرها من الوسائل البلاغية لدى الأدباء في سبيل تصوير مشاعرهم وانفعالاتهم، وكذا محاولات النقاد التأكد من صدق تصوير الأديب لمشاعره وانفعالاته فيما عبر عنه في إنتاجه الأدبي، بل إن علماء التفسير الذين تناولوا النص القرآني وما فيه من قصص؛ لاحظ بعضهم وجود الانفعال في عبارات بعض أصحاب هذا القصص القرآني[2].

يقول الدكتور حمدي الفرماوي: "الانفعال مثل العاطفة ذو طبيعة فطرية، فانفعالات الإنسان أو عواطفه تنتظم وتتشكل وتعبر عن نفسها في إطار ما اكتسبه الإنسان من التنشئة الاجتماعية واستثارات البيئة، ويؤثر مستوي نضج الإنسان وكذلك المرحلة العمرية التي يمر بها على أسلوب تعبيره عن انفعالاته وكذلك عواطفه. والانفعال يمثل خبرة شعورية (مدركة) يمر بها الإنسان في موقف ما، وهي تعبر عن الجانب الوجداني، فمثلاً في فرح أو سرور، في لذة أو ألم، في غضب أو هدوء، وهكذا بما يتناسب مع موضوع الانفعال. [3].

وفي النهاية يجب أن نعيد دراسة تلك العلوم بنظرة جديدة، وهي محاولة التعرف على تلك الحالة النفسية وما قاله هؤلاء العلماء فيها إلى جانب معرفة شكل الجملة وخصائص العبارة التي تصور الانفعال، لكي يتضح لنا أن الانفعال يصور الحالة النفسية التي يحياها الفرد في تلك اللحظة، ويعبر عنها بوسائل مختلفة لغوية وغير لغوية .

---

(١) علم النفس اللغوي، د. نوال عطية، ط٣، المكتبة الأكاديمية، القاهر، ١٩٩٤م ، ٦١.

(٢) سنذكر هذا بالتفصيل في باب التعبير القرآني عن الانفعال.

(٣) البناء النفسي في الإنسان، د. حمدي الفرماوي، مكتبة زهراء الشرق، ١٩٩٦، ص١٥٠ .

٢ـ وسائل التعبير عن الانفعال بين اللغة المنطوقة والمكتوبة :

تعبر اللغة بنوعيها منطوقة ومكتوبة عن الانفعال، إلا أن اللغة المكتوبة لا تتأثر بالمواقف العارضة والانفعالات الزائدة والتعبير الشديد من موقف لآخر، أما اللغة المنطوقة فتتأثر بالمنطقة السكنية والظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تعيش في إطارها [١] .

وكما يرى فندريس أن الفرق الأساسي بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية ينحصر في تكوين الجملة، وهذا الفرق ينبثق جلياً، عندما نقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة؛ فاللغة المكتوبة واللغة المتكلمة تبتعدان في الفرنسية، إحداهما عن الأخرى إلى حد أنه لا يتكلم إطلاقا كما يكتب، ولا يكتب كما يتكلم إلا نادراً وفي كل حالة هناك اختلاف في ترتيب الكلمات، إلى جانب الاختلاف في المفردات، وذلك لأن الترتيب المنطقي الذي تسلك فيه الكلمات في الجملة المكتوبة ينفصم دائماً في الجملة المتكلمة إن قليلاً وإن كثيراً؛ فمن اللغة المكتوبة مثل هذه الجملة: (يجب المجيء سريعاً) و(أما أنا فلا وقت عندي للتفكير في هذه المسألة) و (هذه الأم تكره طفلها)، ولكنها في اللغة المتكلمة تتخذ صيغة مختلفة كل الاختلاف، فيقال مثلا: (تعال بالعجل!) و (الوقت، إيه دا يا أخي! هو أنا عندي وقت، أنا علشان أفكر في المسالة دي!) و (ابنها ! دي هي بتكرهه، دي أم دي!).

وماذا يمكن أن يقال في جملة اللغة المكتوبة ؟ تلك الجملة المنسقة، بما فيها من جمل تابعة، وحروف وصل، وأسماء موصولة، وكل ما تحتوي عليه من أدوات وأقسام! إننا لا نقول إطلاقاً في اللغة المتكلمة: (بعد أن تخترق الغابة، ونصل إلى بيت الحارس الذي نعرفه، بجداره الذي تكسوه أغصان اللبلاب، سندور إلى اليسار، ونسير حتى نجد مكاناً مناسباً، فنتغذى فيه فوق الأعشاب)، بل يقال (حنخترق الغابة، وبعدين نمشي لحد البيت إنت عارفه ... بيت الحارس ... إنت واخد بالك منه كويس ... البيت ده اللى جداره فارش عليه اللبلاب، وبعدين نحود ع الشمال ونشوف مكان لطيف ... ونتغدي هناك ع الحشيش)[٢].

---

(١) سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، د. جمعة سيد يوسف، سلسلة عالم المعرفة، يناير ١٩٩٠م. العدد ١٤٥ الكويت ٦٢.
(٢) اللغة لفندريس، ١٩١.

ويؤكد هذا الدكتور رمضان عبد التواب بقوله: العناصر التي تسعى اللغة المكتوبة في أن تسلكها في كل متماسك تبدو في اللغة المتكلمة، منفصلة مقطعة الأوصال، بل إن الترتيب نفسه يختلف فيها عنه في الأولى كل الاختلاف؛ إذ ليس هنا ذلك الترتيب المنطقي، الذي تمليه قواعد النحو، بل ترتيب له منطقه أيضاً، ولكنه منطق انفعالي قبل كل شيء، فيه ترص الأفكار، لا وفقاً للقواعد الموضوعية، التي يفرضها التفكير المتصل، بل وفقا للأهمية الذاتية، التي يخلعها عليه المتكلم، أو التي يريد أن يوحي بها إلى سامعه [1].

ويشير فندريس إلى ضياع النحو في اللغة المنطوقة قائلاً: فكرة الجملة بالمعنى النحوي تتلاشي في لغة الكلام، فإني عندما أقول: الرجل الذي تراه هنالك جالساً على الرمال هو الذي قابلته بالأمس عند المحطة) أراني أستخدم طرائق اللغة المكتوبة، فلا أصوغ غير جملة واحدة، ولكني لو تكلمت لقلت: شايف كويس الراجل ده ... عندك هناك ... قاعد قدامك ع الرمل .. أهو ده ... إن شفته إمبارح ... كان ع المحطة، فكم توجد من الجمل هنا ؟ [2].

ولكن علي الرغم من رأي هؤلاء العلماء الأجلاء فإن اللغة المكتوبة أقل تعبيراً عن الانفعال – ربما لالتزامها بقواعد النحو واستهلاك الفكر في تكوين هذه الجمل وبناء القواعد مما يقلل من وهج الانفعال وتسحب الفكر ناحية البناء اللغوي الصحيح – إلا إن اللغة المكتوبة لا تخلو من وسائل للتعبير عن الانفعال، تقول الدكتورة نوال عطية عن تأثير اللغة المكتوبة كما في لغة الصحافة: والأمثلة في قراءة الصحف اليومية وما فيها من حوادث مؤلمة، يشعر الفرد أثناء قراءتها بانفعالات مقبضة مؤلمة ... لا يمكن بأن نجزم أن اللغة الانفعالية تنفصل تمام الانفصال عن اللغة النحوية المنظمة تنظيماً منطقياً، حيث إنه إذا تتبعنا العبارات اللفظية المختلفة، فإنا نجدها لا تخلو من ألفاظ انفعالية معينة [3]. ويكفي ما ذكره الدكتور رمضان عبد التواب من مثال

---

(١) المدخل إلى علم اللغة، ١٤٣.

(٢) اللغة لفندريس، ١٩٢.

(٣) علم النفس اللغوي، ٦١.

على ذلك من شعر العجاج حيث قال: ومن أمثلة اللغة الانفعالية في العربية الفصحى قول العجاج الراجز :

حتى إذا جَنَّ الظــلامُ واختــلطْ
جاءوا بمَذّقٍ هل رأيتَ الذئب قَطْ

إننا هنا لسنا في حاجة لتأويل النحاة، وادعائهم حذف الوصف، وأن الأصل: بمذق مقول فيه: هل رأيت الذئب قط، وأن الجملة الطلبية معمولة لهذا القول المقدر، فما قصد العجاج إلى شيء من هذا ! [1] .

فقد جاءت أبيات العجاج تعبر عن انفعال عجز النحاة عن فهمه فحاولوا إخضاعه لقواعد اللغة المكتوبة، أي قواعد النحو عن طريق التأويل، فقد عبرت اللغة المكتوبة عن انفعال الشاعر، فكما يقول برجستراشر عن لغة الشعر والكلام الخاص بهيجان النفس جنسان: أحدهما يتكون من كثير مما يتكلم به بين الناس في مساعيهم اليومية وتعاطيهم شئون الحياة وخصوصا عند أقوام البلاد الجنوبية والسامية من بينها، فإنّا نراها أكثر حدةً وتحركاً من شعوب الشمال، وإذا قرأنا الكتب كدنا أن ننسى حقيقة موقف اللسان في حياة الإنسان، فإن الكتب مملوءة بالكلام الساكن المستوى، والجنس الثاني من الهيجان هو إلهام الشعر، فنرى الشعر يميل إلى مثل ما يميل إليه الكلام الخاص بهيجان النفس، من ترك الربط، واستعمال أشباه الجمل، وغيره [2]

لذا يجب أن ندرس اللغة المكتوبة، كما يجب أن ندرس اللغة المنطوقة، ويحدثنا استفن أولمان عن ملامح تلك اللغة الانفعالية المنطوقة فيقول: تسهم كل جوانب اللغة فيما تحدثه في الكلام من تأثير عاطفي أو انفعالي، فالنبر والإيقاع والتنغيم، واختيار الكلمات، واللواحق، ونظام ترتيب الكلمات ومواقعها في الجمل، والعبارات؛ هذه الأشياء كلها قد يكون لها نصيب في إحداث هذا التأثير، وهكذا تستطيع الكلمات أن تعبر عن العواطف والانفعالات بفضل المضمون العاطفي الذي تكسبه في بعض المواقف المعينة،

(١) المدخل إلي علم اللغة، ١٤٤.
(٢) التطور النحوي، برجشتراسر، صححة د. رمضان عبد التواب، القاهرة، الخانجي، ١٩٨١م. ٨٣.

وربما يكون المضمون قويا إلى درجة يتسبب عنها اختفاء ذلك القدر الثابت من المعني المنطقي اختفاء تاماً، بل إن هذا القدر يصبح هدفا للسخرية والتسفيه، كما يلاحظ ذلك في بعض الاصطلاحات القابلة للاستغلال السيئ، والتي يطلقها السياسيون على خصومهم ومعارضيهم، ومن أمثلة ذلك الديكتاتورية والرجعية، وعدد آخر من الكلمات التي تنتهي باللاحقة ism ذات الشهرة البغيضة [1] ولكن اللغة المنطوقة أكثر تعبيراً عن الانفعال بما لديها من وسائل؛ لأن الفرد لا يعبر ولا يتكلم ليصوغ أفكاراً فحسب؛ بل إنه في الواقع يتكلم ليؤثر في غيره ويعبر عن انفعالاته إزاء هذا الموضوع أو ذاك. فالعبارات اللفظية إذن ذات قيم انفعالية معينه [2].

فمثلاً: يصرخ الطفل من الألم، تعتبر جمله شحنة انفعالية بالنسبة إلى سامعها أو أرى مثلاً حادثاً يقع أمام عيني في الطريق، وأعبر عن ذلك بقولي: مسكينة أمُّ هذا الولد، فهذه عبارة لفظية ذات شحنة انفعالية معينة، لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تكون عبارة منطقية صرفة تعبر عن أمر ما.إن الجملة الواحدة يمكن أن تتميز بالعديد مِن انفعالات مَن ينطق بها أثناء موقف ما. فالفنان الكوميدي والدرامي الذي نشاهده على خشبة المسرح يستخدم عبارات لفظية متباينة تبعاً لموقف معين حيث إن في كل عبارة تعبيراً معيناً يتصف بنغمة صوتية تختلف عن الأخرى، فنوعية النطق الصوتي يضفي على العبارة نوعاً معيناً من المعنى، يختلف تماماً عما إذا قرأنا نفس تلك العبارة في صحيفة ما. فالأمر إذن ليس مجرد معرفة العبارة، وتحليل عناصرها التركيبية النحوية، وإنما هو الوقوف أولاً وقبل كل شيء على تقدير قيمتها الانفعالية[3] .

في حقيقة الأمر لا يمكن بأية حال من الأحوال أن ننكر الحالة السيكولوجية التي يكون عليها المتكلم أثناء الحديث، والدافع الذي يدفعه للحديث، وما يهدف إليه من هذا الحديث، وتأثير ذلك كله تأثيراً إيجابياً في

(١) دور الكلمة في المعني، ٩٢-٩٣ .
(٢) علم النفس اللغوي، ٦٠.
(٣) علم النفس اللغوي، ٦٠ .

التراكيب اللغوية التي يتناولها الفرد ويحدد ألفاظها ومضامينها[1]. فهذه الانفعالات أو العواطف يمكن بطبيعة الحال التعبير عنها بواسطة التنغيم أو تغيير الصوت أو سرعة الحديث أو الشدة التي يركزها المتكلم على هذه الكلمة أو تلك، أو بالإشارة التي تصحب الكلام [2] .

وكما يقول فندريس: فالجملة الواحدة تحتمل عند النطق بها مئات ومئات من وجوه الاختلاف، التي تقابل أشد ألوان العاطفة خفاءً، والفنان الدرامي الذي يقوم بدوره في المسرح عليه أن يجد لكل جمله التعبير اللائق بها والنغمة الحقة التي تناسبها، وذلك أوضح ما يلاحظ على مواهبه، فالجملة التي يقرؤها في صحيفة تعد ميتة خالية من التعبير، ولكنه ينعشها بنطقه، وينفث فيها الحياة [3].

ولهذا يمكن القول: إن اللغة بنوعيها تستخدم وسائل للتعبير عن الانفعال، فاللغة المنطوقة بما فيها من نبر وتنغيم وشدة في الصوت، وسرعة في الكلام تعبر عن الانفعال، أما العبارة المكتوبة فلها تأثيرها أيضاً من تراكيب وتأكيدات داخل الجملة.

٣. اللغة والفكر والانفعال:

إن اللغة هي الوعاء أو المظهر الخارجي الذي يتم تقديم الفكر من خلاله فاللغة اللفظية هي أكثر الأدوات شيوعاً في التعبير عن ذات الإنسان، بل أكثرها دقةً وشمولاً كذلك، والعلاقة بين الفكر واللغة ترتبط بالفكر من زاوية الأفكار وزاوية الاتجاهات الفكرية، فالأفكار يتم تثبيتها والتعبير عنها بألفاظ وسياقات ترد فيها تلك الألفاظ، كما يتم التعبير عن الاتجاهات الفكرية بالعبارات اللغوية المختلفة، ولكن أيهما يؤثر في الآخر الفكر أم اللغة ؟

هناك آراء في هذا الأمر مختلفة، حيث ترى أن اللغة أكثر تأثيراً في الفكر وخاصة فكر الجماعات، ورأي آخر يرى أصحابه تغليب جانب

---

(١) علم النفس اللغوي، ٦٠

(٢) المدخل إلي علم اللغة، ١٤٢ .

(٣) اللغة، ١٨٥ .

الفكر في تأثيره على اللغة، ورأي ثالث يرى أصحابه الاكتفاء بتأكيد الصلة بين الفكر واللغة وعدم الفصل بينهما، وموقف رابع هو الأكثر شيوعاً وقبولاً لدى المعاصرين، ويرى دعاته أن العلاقة متبادلة بين اللغة والفكر من حيث التأثير، فهما يعتمدان الواحد منهما على الآخر أو يتبادلان التأثير أحدهما في الآخر فنحن لا نستطيع التفكير أبعد من قدرتنا اللغوية، كما أننا لا نستطيع أن ننطق بما لا نستطيع التفكير فيه[1]. وهذا الرأي الأخير يمكن الأخذ به؛ لأنه يري أن التأثير بينهما متبادل وأن التفاعل بينهما أمر واقع .

فإذا كانت العلاقة بين اللغة والفكر علاقة متبادلة من التأثير والتأثر، وأن الأفكار بجميع أنواعها تعبر عنها اللغة، فاللغة يمكن أن تؤدي وظيفتين رئيسيتين؛ قد تكون أداة للتعبير عن الحقائق والقضايا الموضوعية، وفي هذه الحالة يكون هدفها مجرد توصيل الأفكار ونقلها، ولكنها قد تكون أيضاً ذات وظيفة عاطفية وديناميكية بصفة أساسية، أي أن وظيفتها حينئذ هي التعبير عن العواطف **والانفعالات** وإثارة المشاعر والتأثير في السلوك الإنساني... وقد تسهم كل جوانب اللغة فيما تحدثه في الكلام من تأثير عاطفي أو انفعالي، فالنبر والإيقاع والتنغيم واختيار الكلمات واللواحق ونظام ترتيب الكلمات ومواقعها في الجمل والعبارات.

هذه الأشياء كلها قد يكون لها نصيب في إحداث هذا التأثير، وهكذا تستطيع الكلمات أن تعبر عن العواطف والانفعالات بفضل المضمون العاطفي الذي تكتسبه في بعض المواقف المعينة[2] فاللغة تعبر بكل وسائلها عن كل الأفكار المختلفة العلمية والقضايا العاطفية والانفعالات المختلفة كمعان تبثها اللغة في الكلام، وما العاطفة والانفعال إلا فرع من فروع المعنى الذي تعبر عنه اللغة بوسائلها المختلفة، ولكن من أين تأتي العاطفة والانفعال في الكلمة كمعنى يصل إلى عقل السامع ؟

---

(١) نقلا عن مفهوم المعنى، د. عزمي إسلام، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، يناير، ١٩٨٥م، ١٨ – ٢٠.
(٢) دور الكلمة في اللغة، ٩١.

٤. مصادر العنصر العاطفي في معنى الكلمة :

أحياناً يكون المعنى بطبيعته مثيراً للشعور والإحساسات القوية من ذلك أن الكلمات التي تدل على القيم الخلقية نحو: حرية، عدل، حتى الصفات التي تستعمل في المدح أو القدح مثل: طيب، جميل، رقيق، شنيع، دنيء، حقير، وكلها ألفاظ يصعب تلخيصها أو تجريدها مما فيها من إيحاءات ذاتية عاطفية .

وأحيانا أخرى، قد يكون اللفظ نفسه بما له من وقع صوتي معين عاملاً من عوامل التأثير العاطفي للمعنى، فالمعروف أن بعض الأصوات، وبعض التراكيب الصوتية ذات قوة تعبير عن المعنى وملائمة لهذا المعنى بوجه خاص. وهذا معنى رمزية الأصوات [١].

وقد يكون السياق وحده هو الذي يوضح لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعي صرف، أو أنها قصد بها – أساساً – التعبير عن العواطف والانفعالات، وإلى إثارة هذه العواطف والانفعالات، ويتضح هذا بصفه خاصة في مجموعة معينة من الكلمات نحو (حرية، عدل) التي قد تشحن في الحياة كثير من الأحيان بمضمونات عاطفية، بل إن بعض الكلمات المستعملة في الحياة اليومية العادية قد يكتسب نغمة عاطفية قوية غير متوقعة في المواقف الانفعالية مثال ذلك كلمة (جدار) في هذه القطعة من (حلم ليلة في منتصف الصيف) :

وأنت أيها الجدار! أيها الجدار الحلو الجميل
وأنت الذي تحول بين بيت أبيها وبيني
وأنت أيها الجدار! أيها الجدار الحلو الجميل
ألا تتصدع من أجلي فالمحها بعيني !
شكرا لك أيها الجدار المهذب؛ رعاك الله من اجل هذا الصنيع
لا! أنت أيها الجدار اللئيم الذي لا أرى من خلاله رحمة
لعنة الله على كل حجر فيك لقد خدعتني !

---

(١) دور الكلمة في اللغة، ٩٣ .

وهكذا نرى أن السياق وحده هو الذي يساعدنا على إدراك التبادل بين المعاني الموضوعية والمعاني العاطفية والانفعالية [1].

والمصدر الأخير يتمثل في " قوة الكلمات على الاستدعاء فالملاحظ أن وقوع الكلمات في نماذج معينة من السياقات يكسبها جواً خاصاً ويحيطها بملابسات تعين في الحال على استحضار البيئة التي تنتمي إليها هذه الكلمات، ومصداق ذلك أننا نرى المصطلحات الفنية أو المهنية أو العلمية يحمل في ثناياها طابع الذين يستعملونها من المتخصصين [2].

هذه المصادر التي تمد المعني بالعناصر العاطفية والانفعالية هي جزء لا يتجزأ من النظام اللغوي، فهي تفرض نفسها على الجماعة اللغوية كلما سنحت الفرصة لذلك ويكون تأثيرها حينئذ تأثيراً عاماً مطرداً إلى حد بعيد.

الخلاصة: إن اللغة تكسب بألفاظها وسياقاتها المختلفة المعنى عناصر انفعالية، فيصبح المعنى معبراً عن الانفعال أو العاطفة من خلال تلك الرسائل اللغوية فالانفعال والعاطفة أحد جوانب المعنى، والتعبير عنهما هو إحدى الوظائف اللغة الرئيسية .

٥.رد الفعل :

إن اللغة بما ذكرنا من وسائل تستطيع أن تؤثر في الجماعة اللغوية، بل تفرض نفسها على الجماعة اللغوية كلما سنحت الفرصة لذلك، ويكون تأثيرها حينئذ عاماً مطرداً إلى حد بعيد. ولكن يكون رد فعل المستمع على هذه الإثارة أو ذلك الانفعال القادم إليه من خلال ألفاظ وتراكيب وسياقات ينطق به المتكلم أمامه .قد يكون رد الفعل بالاستحسان أو الاستهجان وهذا الأمر يتوقف على عوامل تحدد نوع رد الفعل، فمنها أنها هنا فردية أكثر منها جماعية فالظروف والملابسات الشخصية مثلاً قد تكون هي العاملة في تحديد نوع رد الفعل الذي يصدر من كل واحد منا تجاه الكلمات، بل تجاه أسماء الأعلام .... ونستطيع أن نلمس هذه الحالة في أخبار الصحف، فهذه الأخبار تبين لنا كيف يكون تأثير الناس بظروفهم وحالاتهم الخاصة تأثيراً قوياً وكيف أن هذا التأثير – الذي قد يكون بالرضا والاستحسان أو النفور

(١) دور الكلمة في اللغة، ٥٨ .
(٢) المرجع السابق، ٩٤ .

والاشمئزاز – لا يمكن تعليله أو توضيحه وذلك لارتباطه بعوامل شخصية ذاتية، زد على ذلك أن الألوان العاطفية أو الانفعالية للمعنى قد تكون مقصورة على سياقات فردية [1] .

وإذا كان هذا رأي استيفن أولمان في أن رد الفعل مقصور على الظروف والملابسات الشخصية، فإننا نضيف إليه عاملاً آخر يؤثر في رد الفعل وهو أخطاء السمع، وقد حدث أن تشاجر شخصان، وفي وسط الحوار تكلم الأول بكلمة يقصد بها سب الآخر، ولكن النتيجة كانت غريبة حيث أخطا الثاني فيما سمع، فقد سمعها كلمة تودد، وطلب التسامح فتحول الانفعال من الغضب والثورة إلى عتاب ومصالحة بينهما. وقد يحدث العكس في مواقف انفعالية أخرى حيث يحدث خطأ في السمع ينتج عنه شجار ويحول الانفعال من رضا إلى غضب .

وهناك عامل آخر أشار إليه استيفن أولمان في حديثه، وهو أن رد الفعل شخصي مقصور على الظروف والملابسات الشخصية، ونتيجة لهذا فإن ما يفعله البعض تجاه كثير من الألفاظ التي تصدر من شخص آخر قد يكون المتوقع كرد فعل لهذه الألفاظ هو الاستحسان ويحدث العكس وهو الاستهجان أو الاشمئزاز، وربما الشجار لماذا ؟

لأن هذا الشخص الثاني ربط بين هذه الألفاظ ومواقف انفعالية سابقة فنتج عن ذلك هذا الانفعال غير المتوقع، وقد يحدث عكس ذلك للسبب السابق نفسه، كما أن رد الفعل يرتبط أولاً وأخيراً بنوع المثير ومدى تأثيره على هذا الشخص، فرد الفعل شخصي، فإذا كان المثير قصيدة مليئة بالانفعالات أو أغنية وطنية أو عاطفية أو خبر في صحيفة؛ فإن هذا المثير يتبعه رد فعل يختلف من شخص إلى آخر حسب ارتباط هذا الشخص بذلك الخبر أو تأثره به .

وقد يكون رد الفعل متفاوتاً من شخص إلى آخر، ما بين صيحة أو ربما صيحات هستيرية معبرة عن الفرح الشديد أو الحزن الشديد، وقد يكون كلمات هادئة مثل: مسكين فلان !، يقول فندريس: إنني أرى حادثاً يقع أمامي، فأصبح راثياً لحال صاحبه آه ! المسكين وأقابل صديقا لم أكن

(١) دور الكلمة في اللغة، ٩٥ .

أتوقع لقاءه فأقول له: أنت هنا! فهذه الجمل ذات قيمة انفعالية، واضحة كل الوضوح [1].

كل هذه الأفعال من كلمات أو صيحات هي عبارة عن انفعالات في لغة بسيطة يفهمها كل شخص حتى ولو لم يكن يعرف تلك اللغة، ولماذا ؟ لأن تلك الكلمات أو الصيحات تكون مصحوبة بوسيلة تعبيرية أخرى، تعبر عن نوع رد الفعل من استحسان أو استهجان وهذه الوسيلة هي الإشارات الجسمية المختلفة التي يصدرها ذلك الشخص المنفعل بما سمع أو قرأ، وتكون في شكل علامات على وجه صاحبها تدل على السعادة أو الحزن . أو ربما تكون في شكل حركة باليد أو القدم أو القفز لأعلى لشدة الانفعال، أو الوقوع على الأرض، أو بدون لغة مطلقاً مثل الصمت وله دلالة كبيرة أكثر من اللغة نفسها .

٦. ضعف المثير اللغوي:

يقول Stephan ستيفن أولمان (المعنى العاطفي كأي عنصر من عناصر النظام اللغوي معرض للتغيير وعدم الثبات، فالشعارات العصرية والنداءات المذهبية الخاصة مثلاً كثيراً ما تفقد قوتها وتصبح جدباء عقيمة في مغزاها وتأثيرها، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن الظروف الأصلية التي انبثقت منها هذه الشعارات والنداءات قد فقدت فاعليتها وزال تأثيرها، أو قد حدث تلطيف في درجة الانفعال والحماس المرتبطين بهذه النداءات والشعارات، ومن ثم لا يستطيع النداءان: (حكومة وطنية) و (الحقوق الانتخابية للمرأة) أن يثيرا الآن في النفس ما قد أثاره في يوم من الأيام من الانفعالات الحادة والشعور القوي .

إن هذه الكلمات دخل عليها عنصر الزمن، وتغير الأحوال فأفقدها قوة التأثير الذي كانت تستمتع به، وقد يكون كثرة الاستعمال والترداد يؤدي بها إلى فقد هذا التأثير، بل الابتذال أحياناً، (وهذا العامل يتمثل فيما يعرف بقانون التضاؤل التدريجي) ذلك القانون الذي يقوم بدور كبير في تغيير المعنى في أحيان كثيرة. فتفقد هذه الكلمات ألوانها المعنوية الخاصة، وأن تحرم من

(١) اللغة لفندريس، ١٨٣ .

قدرتها التعبيرية والإيحائية بكثرة التكرار والترداد فتحتاج إلى تعزيز وتقوية دائمين [1]. هذه الألفاظ التي تحمل كثيراً من الانفعالات والعواطف تثير في النفس كثيراً من المشاعر قد يصيبها الضعف – كما ذكرنا – وتصبح باهتة، بل ربما مبتذلة، قد تكتسب فجأة مضموناً عاطفياً قوياً ولكن كيف يتم ذلك ؟ ربما يتناول هذا اللفظ الباهت شاعر أو أديب فيدخله في شعره ويتقبله المجتمع يقول ستفين أولمان: الكلمات الباهتة الخالية من الإشعاع أو الإيحاء خلواً تاماً في السياقات العملية المحضة، ربما تكتشف فجأة عن مصادر غير متوقعة من الإيحاء وقوة التعبير في المواقف الانفعالية والشاعرية، وقد يجدد الشعراء في الصور القديمة للمعاني ويعيدون إليها الحياة التي فقدتها بالتدريج، وذلك بالرجوع بها إلى أصولها التاريخية الأولى؛ فعندما يقول الشاعر الحديث: طويل اللسان فصيح البيان ... تبرز العبارة (طويل اللسان) فجأة ويتضح معناه القديم وضوحاً لا خفاء فيه، وهذا المعنى القديم هو الوصف باللسان والبلاغة [2].

ولهذا السبب يجب أن تدرس اللغة الشعرية وما فيها من إمكانيات تعيد للألفاظ قدرتها على الإيحاء بحملها معان كثيرة فقد تزيد التعبيرات الدارجة واصطلاحات اللهجات العامية في بهجة الأسلوب وحيويته إذا استعملت استعمالاً لبقاً، غير أن ذلك يحتاج إلى حس مرهف، وأن الأسلوب يتضمن فكرة اختيار الأنسب من بين طرائق التعبير الممكنة التي تصنعها اللغة بين يدي الكاتب أو المتكلم، وإذا كان الاختيار من بين المترادفات المتحدة المعنى الموضوعي، فهذا الاختيار بوجه خاص هو الذي يظهر مهارة الكاتب أو المتكلم وقدرته على تناول الظلال والألوان العاطفية لهذا المعنى[3].

٧. مشكلة المصطلح والتعبير عن الانفعال:

إن المصطلحات التي نستخدمها للتعبير عن الانفعالات المختلفة يشوبها كثير من الغموض وكثير من المشاكل، ومن هذه المشاكل:

---

(١) دور الكلمة في اللغة، ٩٦.

(٢) دور الكلمة في اللغة، ٧٧.

(٣) المرجع السابق، ٩٤.

أ ـ قد "يعبر كثير من العلماء المعاصرين عن الانفعالات باستخدام مفاهيم مجردة مثل الخوف والحزن والغضب والفرحة دون أن تتضمن هذه المفاهيم أي معلومات حول حالة المخ، ومصدر، وهدف وتوقعات، ونتائج الانفعال المتضمن بالنسبة للذات أو للآخرين" [1].

إن الألفاظ التي تستخدم للتعبير عن الانفعالات المختلفة، هي مفاهيم مجردة في عقول البشر، ولكننا في حاجة لمعلومات عن حالة المخ وحالة المنفعل والمتلقي لهذا الانفعال، من أهداف أو أسباب الانفعال ومصدره، وتوقعات لسلوكه كرد فعل، ونتائج ذلك التوقع والانفعال، كل هذه الأشياء تبين كل جوانب قضية الانفعال الظاهرة والباطنة.

ب ـ وأيضا نحن في حاجة إلي مصطلحات جديدة تعبر عن التنوع اللانهائي لكل انفعال مثل الخوف بأنواعه واختلاط المشاعر الانفعالية مثل الغضب مع الخوف، أو "حالة طلاب الجامعة في السنة النهائية مع اقتراب شهر مايو (شهر الامتحانات والتخرج) والتي تجمع ما بين الشعور بالفرحة الغامرة والحزن لفراق الجامعة التي يحبونها" [2].

ج ـ المشكلة في الكلمات الخاصة بالانفعالات هي أن كلا منها له معان متعددة وبالتالي غامضة... وسبب هذا الغموض هو أن الأفراد يستخدمون من حين لآخر كلمات مختلفة لوصف مشاعرهم، وهذه الكلمات إذا ما قيست قد تكون متشابهة.

د ـ الأشخاص الذين مروا بالفعل بتجربة شعور معين يكون لديهم معنى للمصطلح يختلف عن المعنى الذي يفهمه الآخرون الذين لم يعايشوا هذا الشعور فمعنى الخوف من الإيذاء بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا ضحية العنف يختلف عن المعنى الذي يفهمه من لم يمروا علي إطلاق بتجربة الاعتداء الجسدي عليهم [3].

---

(١) ما الانفعال؟، ١٩٩.
(٢) المرجع السابق، ٢٠١.
(٣) ما الانفعال ؟، ٢١١.